طرائف وقصص

أقصوصة مصرية

زعيم الطلبة

للأستاذ السيد حسن قرون

كان يجلس في الفصل ساكتا ساكتا، لا يسأل ولا يسأل، ولا يشترك في نقاش جل أو هان. فإذا نزل إلى فناء المدرسة انزوى في مكان قصي، ونشر صحيفته، وأخذ يقرأ قراءة المهموم، حتى إذا عاد إلى فصله مرة أخرى جر نفسه في تباطؤ وانكسار. وكان من يراه يظنه من المتفوقين الذين حبسوا أنفسهم على الدرس واستيعاب العلوم، وكان نجاحه على وتيرة واحدة لا ينقضها ولا يخالفها، فقلما نجح من الدور الأول. وكان إذا أراد أداء امتحان الدور الثاني أوحى إلى أبيه في القرية أنه في حاجة إلى السفر إلى المدينة. وأبوه — والحق يقال — لا يعرف من أمره شيئا، ولا يسأل عن نتيجته. وكان سلوكه يطمئن والده، فالثقة فيه متوافرة، والاعتماد على عقله الحصيف ماثل، فليس ثمة داع إلى الريبة والظن. وماذا يرجو والده منه؟ هو ناجح، وينتقل من فرقة إلى أخرى، وها هو ذا في السنة الثالثة الثانوية، لم ير أحد منه رسوبا ولا تقصيرا

لكنه على حين غفلة أصبح زعيم الطلبة. أما كيف سار إلى هذا المركز فهذا ما يحتاج إلى حديث. لقد جاءه الوحي بالزعامة، والمدرس يشرح الدرس، وما من شك في أنه لم يسمع كلمة، ولم ير أحدا ممن حوله فقد كان في شغل شاغل، طرح به بعيدا عن المدرسة والدراسة، فلما دق الجرس، وطار الطلبة إلى الفناء تخلف عنهم قليلا، ولما تأكد من خلو الفصول من طلابها صاح بأعلى صوته: ليسقط الاستعمار! ليسقط «صمويل هور»! ونظر الطلبة إليه وسمعوه يردد الهتاف مرة ومرة، فهرعوا إليه يرددون نداءه ثم خطب خطبته المشهورة — كما يقال في الزمن القديم — ودعاهم إلى الثورة، وترك العلم، وقفز إلى خارج المدرسة، وهتافه لا ينقطع ولا يفتر، واندفع وراءه جمهور الطلاب، وسارت المظاهرة تجوب شوارع أسيوط، وتمرج من حين إلى حين على مدرسة في طريقها، فتخرج طلابها. وهكذا تضخمت المظاهرة، وشق هتافها عنان السماء — كما تقول الصحف — وكان الناس يرون طالبا محمولا على الأعناق يكاد يخرج من جلده، وهو يصيح بسقوط الاستعمار.. وانتهى زعامة جديدة تضاف إلى الزعامات القديمة. ومن هذا اليوم اشتهر الأستاذ «بهلول» وهذا اسمه، وعرفته المدينة ثائرا لا يهدأ، وخطيبا لا يسكت، وزعيما سياسيا لا يعجز عن حل المعضلات. وأنت تعلم تماما أن الزعماء يشقون طريقهم إلى المجد بالعرق والدموع، ولا يصلون إلى الصفوف الأولى إلا بعد أن يصيح النهار بسواد شعرهم، ولكنه — أي زعيم الطلبة — خرج هكذا فكان زعيما زعيما! مطبوعا قاد الطلاب في صباه، وحير البوليس بأساليبه وألاعيبه، ويقال: إن الزعيم ينبغي أن يكون قوي الجسم، ضخم الجثة، ريان العود، حاد النظر، جهوري الصوت، حتى يسحر الجماهير. وأنا أعترف لك ولا أحلف بأن زعيم الطلبة حرم تلك الميزات، فقد كان نحيلا، لو تركا عليه طالب بالسنة الأولى الابتدائية لانهدم، وقيثا تقتحمه عيون الأطفال بلا مبالاة، وله عينان بارزتان في استحياء، وفم انفرج من كثرة الثرثرة والنداء، وله صوت لا يصلح للغناء، ومع هذا كله كان نشيطا سليطا يروع حفظة الأمن، لا يكل ولا يمل، فهو شعلة متقدة، تراه في ناد وبعد قليل في مقهى. واتسعت دائرة شهرته، فلا يقوم حفل إلا كان من خطبائه، ولا يجتمع التشاور جماعة إلا كان بينهم، وإذا تحدث إليك أفاض في الحديث؛

فهو ملم بأخبار الكـ ـرضية دولة دولة وزعيما زعيما ، ولا بأس أن يحدثك ـ ـان ويأجوج ومأجوج ؛ لأنه يحب الثقافة العامة ولا يقف ـ أمر من الأمور ، وكان يقول : إن لكل شيء موضعا

وتوالت الأحداث — ولا أحداث هنـاك — وإذا بالأستاذ بهلول يصر ـ الثورة والتظاهر ، وإذا بالبوليس يقف منه موقفاً شاذا ، ـكنه لا يتراجع ، وينتهى الأمر بالقبض عليه

والقبض على زعيم الطلبة معنـاه الثورة ، والثورة الجامحة الطامحة ! وأضـ ب الطـلاب احتجاجا على إهانة زعيمهم ، وسرعان ما أفرج عنه ، واستقبلوه هاتفين وحملوه على الأعناق . ونظر إلى نفسه فداخله الغرور ، أو قل إنها الثقة والطموح ، وفكر فى زعامته فوجد مدينته لا تصلح لهـا ، وأنه فى حاجة إلى أفق رحيب ومجال أوسع ، فلا يليق به بعـد ما بلغ ما بلغ أن يستقر على حاله تلك فلينتقل إذن إلى العاصمة ، فهى فى شوق إلى أمثاله

ونظر إخوانه ذات يوم فلم يجدوا زعيمهم ، وانتظروا أخباره ، ولـكنها بعدت عنهم ، وبعد حين يطول أو يقصر وصلت عنه الأنباء عاطرة بذكره ، تشيد بأعماله الـكبار ، فقد دخل القاهرة دخول الظافرين ، فجاب أنحاءها ، ولمـا يسترح ، وهاجم نوادى الأحزاب ولما ينفض غبار السفر ، ولم يلتفت إلى ما حوت من جمال وحضارة ، ولم يفـكر فى متحف أو ملهى ، فالأمر أجل من ذلك خطراً ، ولم يضيع الفرصة وهى سانحة ، ولم يؤخر عمل اليوم إلى غد ، وحياة الزعماء تقد بالدقائق والتوانى . ولما كان فى فطرته الثورة ، فقد انضم إلى حزب المعارضـة . وابتدأ العمـل ، واتخـذ الفنادق مأوى ، والمقـاهى مورداً ، ولم يستطع فى بادئ الأمر أن يزاحم خطباء الأحزاب ، فالأحزاب مليئة بالشباب الثائر الفائر ، والبلغاء الأبيناء ، وما عليه أن يكون هتافا ، وهو واثق مـن نفسه على كل حال ، وقد عرفه الناس جريئاً يتوجه إلى رئيس الحزب ، فيهنئه بسحر البيـان ، وقوة المنطق ، ورئيس الحزب فى غنى عن إطرائه وثنائه ، ولـكن الزعامة لا تتقيد — كما كان يقول الأستاذ حافظ عوض فى ذلك الزمان

ولم يمض على الأستاذ بهـلول شهران حتى صادفتـه عقبات — كـكل الزعماء — فقـد أصبح خالى الوفاض لا يملك من المـال شيئا ، فقد انقطع بر والده به ، ووالده غير ملوم فيما فعل ، فهو مستعد للانفاق على ابنه ما طلب العلم ، أما أن يهرب من المدرسة فماله بين يديه لا يرسله إليه . وفكر فى شأن والده فرآه على ضلال مبين . لا يقدر الأمور قدرها ، ولا يحسب للوطن حسابا . إنه ذو أثرة يقدم منفعته على منفعة الوطن . وما فائدة العلم فى بلد محتل ! ومن أين علم أن ابنـه يعيش حتى يجنى ثمرة تعليمه ، لقد وهب للوطن نفسه ويود أن يسقى شجرة الحرية بدمائه ، ومع ذلك فهو على جانب كبير من المعرفة ، فهو يستطيع أن يكتب ويخطب ويجادل ، ولا يعيا ببرهان . ماذا ينقصه ؟ ولو كان والده على علم بمـا يجول بخاطره ، أو يفـكر فى مستقبل وطنه ما وقف ذلك الوقف الشائن ! ولأغدق عليه النعم ، فما هجر العلم ليلهو ويلعب ، وما لنفسه بنى الخير . إن الوطن قد ناداه فلبى النـداء ، ودعاه فأجاب الدعاء . والوطن أكبر من الوالدين ، وأسبق منهمـا وجوداً ، وأجدر بالبر والطاعة

ثم قام من مكانه . ومضى فى طريقه لا يلوى على شيء ، ولا يحفل بشيء ، تمر عليه الدور والقصور ولا يعبأ بها ، وتجرى حوله السيارات ذاهبة آيبة ، ولا تحرك منه ساكنا . إن شؤون الوطن قد ملأت شعاب قلبه ، وحاطها بشغافه ، ولم يعد هناك متسع لغيرها . وفجـأة وجد نفسه أمام قصر عابدين فبهت لمرآه ، وتيقظ تيقظا شديدا ، وسمرت عيناه فى شرفته ، وأراد أن يتكلم ، فجذبه الخوف جذبة أماتت الكلمات بين شـفتيه ، وبدا له أن يطوف حوله ، فأدى

الطواف مغيظا محنقا ، ثم تابع سيره ؛ حتى ألقى بنفسه فى مقهى متواضع دخله لأول مرة ؛ واتخذ له مكانا بعيدا عن الناس فقد عاوده الحنين إلى الوحدة ؛ وحدثته نفسه أن ينقد رواد المقهى ؛ فوجد نفسه مثلهم ؛ فاعتذر لهم فى ضميره وراح يسلى نفسه . فوضع الصحف المسائية أمامه على النضد بجوار الصينية وأخذ يقرأ حتى انتصف الليل ؛ وصاح صاحب المقهى يأمر بإغلاق الأبواب . فلما أحس تلك الصيحة نهض متثاقلا يجر رجليه جرا

ماذا يفعل ؟ إن ما معه من النقد لا يقوم بأمره . أيذهب إلى صديق ليقضى عنده بقية الليل ؟ ولم لا يوافق على هذه الفكرة . أيسير فى الشوارع إلى أن يقضى الله أمرا كان مفعولا ؟ وهنا هز رأسه علامة الرضا ؛ وصار يقطع الطرقات ؛ ويحادث العسس ؛ ويرمق السيارات ورا كبيها ؛ واحتجت مبادئه السامية ؛ فلعن القدر وحياته الفاشلة . ثم سكنت المدينة وهو يدب فى أحيائها وحيدا شريدا

واستقبل الصباح خائرا كئيبا ، لا تكاد تحمله قدماه ، وعلى غير وعى ألقى نفسه فى مقهاه ، وشرب شايا ممزوجا باللبن ، وقرأ صحف الصباح بالمجان . فلما متع النهار شد جسمه إلى السير ، والسير المجهول ، ومضى فى طريقه تتناوشه الأفكار السود من كل جانب . ومرت فكرة عن حزبه مر الجانب ، ففرح باحتجابها ، فقد يئس منه كل اليأس . وفجأة سمع هتافا حارا ، فاندفع نحوه بما يملك من قوة فوجد ضالته المنشودة ، وجد مظاهرة كبرى ، فاندمج فيها كأنه محركها ، وما هى إلا هنيهة حتى كان على الأعناق يهتف وينادى بسقوط الحكومة ، ولم يقف البوليس مكتوف اليدين ، بل فرق المظاهرة وقبض على زعماء الحركة وفى مقدمتهم زعيم الطلبة . وفرح جدا حين اقتحم باب السجن كأنه مجرم تعود حياة السجون ، وبات ليله يغط فى نوم عميق ، ولم ير الشمس حين أشرقت بنور ربها ، ولكنه أحس بها من داخل قلبه ، وشعر بارتياح عظيم ، وقدم إليه طعام غير طعام السجن فرضى عن نفسه وعن حزبه ، ومرت عليه خواطر بيضاء ، وأحلام حلوة . ولم يخرج من السجن إلا يوم سقوط الحكومة . وخرج ليكون من المجاهدين

لقد كان سجنه نقطة تحول فى حياته ، فقد أصبح يجد المال ميسرا ، وأصبح خطيبا يشار إليه بالبنان ، يتحدث عن الاعتقال ، والصبر على الاعتقال ، وحاجة الوطن إلى الفدائيين . وأقبلت الانتخابات فخاض غمارها داعيا وهاتفا، وامتطى الطيارة مع أحد المرشحين ، وأطل من عل على المدائن والقرى ، والرداء الأخضر الذى يتشح به النيل ، وذاق النعيم ، وصار كالفراش يتنقل على موائد العمد والأعيان ، وأخذ يواصل العمل ليلا ونهارا . حتى إذا انتهت أيام الانتخابات — وليتها لم تنته — عاد إلى القاهرة ليتخذ دار الحزب مثابة وأمنا

هل دامت تلك الحياة السعيدة لزعيم الطلبة ؟ إن الدهر حول قلب ، وخلائق الدنيا خلائق مومس — كما يقول الشريف الرضى — فقد انقطع عنه ما كان يتقاضاه ، وران على الحزب سكون رهيب ، ولم يهش لاستقبال أبطاله ، وفكر قليلا فى ركود الحزب ، ولكنه نوى الرحيل

أتضيق القاهرة على زعيم الطلبة ؟ غداً يذهب إلى المدارس والكليات علّه يجد ما يتمنى ، ونفذ ما ارتآه . فلم يجد حميماً ولا مطيعاً ، وحمد الله أن نجا بجلده من مخالب البوليس . وماله لا يكون صحفيا ، وقد كتب مقالا فى الأهرام بإمضاء مستعار ، فليذهب إلى دور الصحف ، ومن قبله أناس حرروها وما بأيديهم شهادات عالية ، وطاف يبغى عملا فسدت فى وجهه السبل ، فلجأ إلى حياة التشرد فأخذ يبيت عند هذا ليلة ، وعند ذاك ليلة ، حتى اجتواه من كان له محباً ، ومله من كان به معجبا ، ونبا به المقام ، واعترته الهموم والأسقام ، ووسط أناساً ليصلوا

بينه وبين والده فلم يوفق ، وطفق يتوسل إلى أحد النواب ليجد له وظيفة ، والنائب المحترم يراوغه أو يتهرب منه ، حتى عد نفسه شقيا لا مكان له فى هذه الدنيا الواسعة

وذات يوم سأل عنه ذلك النائب ليزف إليه البشرى بالوظيفة المبتغاة ، فأخبر بمرضه فطوى البشرى ، وتركه لدائه وبلواه . لقد أصيب بالسل ونزل المستشفى للعلاج ، وهيهات هيهات أن ينجو منه ، ومن أين له بجسم يقاوم ذلك الداء ... وأخيراً عجز الطب والأطباء

وذات يوم حضر والده ليرى ابنه محمولا على الأعناق ، ولكن فى هذه المرة إلى باطن الأرض ، فقد آن له أن يستريح من ظهرها

السيد حسن قزوله

السجن ودعابة الشاعر

« أنا لست محتالا . أنا شاعر أحب أن أداعب المجتمع . وهل دعابة الشاعر جرم ؟ »

هكذا وقف (فاومستينو فالانتين) أمام المحكمة فى إحدى مدن الأندلس منذ أيام يناشد القضاة بأن يغفروا له دعابة شعرية من نوع غريب

فقد أبى شيطان الشعر لهذا المواطن الأندلسى الشاب إلا أن ينشر فى الناس سلسلة من القصائد الرقيقة يحيى بها فتاة فقيرة من اللقطاء تخيلها شاعرنا وريثة مال وفير تركه لها والدها الحقيق وهو مركيز إسبانى من طبقة الأشراف . وبلغ من جمال هذه القصائد أنها رسخت فى عقول الناس على أنها قصة حقيقية . وساعد على ذلك أن الشاعر استعمل أسماء لأشخاص حقيقيين فآمنت بها الفتاة وآمن بها أحد البنوك الإسبانية فوضع تحت تصرف الفتاة مبلغاً وفيراً من المال يساعدها على أن تهيىء نفسها لتلقى الإرث العظيم ريثما تفرغ الإجراءات الحكومية التى تصاحب عادة نظام الوراثة فى إسبانيا

وعاشت هذه الفتاة اللقيطة خمسة عشر يوماً عيشة المترفين من النبلاء وأصحاب الألقاب الرفيعة بعد أن أثبت صاحبنا الشاعر فى قصائده نبل محتدها ونسبها الرفيع

ثم تبين للبنك أن نسب الفتاة وإرثها المنتظر لا وجود له إلا فى مخيلة الشاعر . فقاضى البنك الشاعر أمام المحاكم المدنية بدعوى الاحتيال والتزوير ، وقال المدعى العام إن خيال الشاعر يجب أن يتطرف بحيث يستغل ظروفا تعسة لفتاة فقيرة ويشهر بها على أنها لقيطة ، ثم يدخل السعادة المزيفة إلى قلبها فى دعابة شعرية « شيطانية » متقنة بحيث أقنعت أشد القلوب قساوة : قلوب الصيارفة وأصحاب البنوك — فأضاعت عليهم مبلغاً من المال قدموه للفتاة « الوارثة » فأنفقته فى ثورة ترف وبذخ طارىء

وطلبت المحكمة قبل إصدار القرار من الفتاة أن تدلى بشهادتها فقالت : أجل لقد كذب هذا الشاعر ، ولكن أليس من الممكن أن تكون قصته عن أصلى وفصلى وإرثى حقيقية ؟ وبعد فلم يصبنى من دعابته الشعرية أذى وإنى شاكرة له أن أتاح لى تذوق حياة الأشراف المترفين خمسة عشر يوما هى أيام لم يقو خيالى على أن يتصورها قبل أن آل إلى هذا الإرث الشعرى الجميل

ويبدو أن القضاة فى هذه المدينة الأندلسية لم يكونوا على قسط كاف من الإحساس الشعرى ، يدركون به قوة شيطان الشعر ، فحكموا على الشاعر بالسجن بضعة أشهر وبالغرامة المالية أيضا

الروايـــة

مجلة القصص الرفيع

تظهر فى أول كل شهر وفى منتصفه

الاشتراك السنوى ١٠٠ قرش فى مصر والسودان ،

١٥٠ قرشا فى الممالك الأخرى